باسمه تعالى

د . جعفر المهاجر

أُسرة آل الحرفوش أمـراء بعلبك

"الحرفوش" عَلَـم على أسـرة شيعيّة ، كان لها سُلطة سياسية ـ إقطاعية على رقعة متفاوتة ممّا هو " لبنان " السياسـي اليوم . وذلك منذ أواخر عهد الحكم المملوكي (القرن ١٠ هـ / ١٦ م) وأثناء الحكم العثماني . وتحديداً حتى النصف الثاني من القرن ١٣ هـ / ١٩ م . وما يزال أعقابهم في أنحاء " لبنان " حتى اليوم .

يرجع أصل الأسـرة إلى " العراق " على الأرجح . هناك أدبيّات شفويّة تُنهي نسبهم إلى قبيلة خُزاعة ، من خُزاعة " العراق" . وهذا إجمالاً أمر غير مُستبعَد . لِما هو ثابت من أن أكثر الجماعات الشيعيّة في "لبنان" و"سوريّة" قدمت من "العراق" . لكننا نرتاب كثيراً في صحّة ما تقوله تلك الأدبيّات ، حيث تُرجع نسبها إلى شخص بعينه ، تُسمّيه حرفوش الخُزاعي. تزعم أنه قدم مع سرايا الفتوح واستقرّ في غوطة "دمشق" . وعندما توجّه أبو عبيدة بن الجرّاح إلى "بعلبك"عقد له راية بقيادة فرقة . ثم استوطنها . ومنه تسلسلت أعقابه (ميخائيل موسى ألوف : تاريخ بعلبك / ٦٥) .

إن دراسةً ألسنيةً Linguistics لاسم الأسرة يمكن أن تُلقي ضوءاً مذيراً على ما نجهله من تاريخها . ويؤخَذ من نصوص كثيرة متآزرة أن كلمة (حرفوش ج. حرافيش . والجاري على الألسن محليّاً : الحرافشة) يُقصد منها شخص من طبقة اجتماعيّة وضيعة (Dozy:Supplement aus Dictionnair Arabes) مـادة " حـرفش" . وكـان الحرافيش طبقة معروفة ، على شـئ من التنظيم في العهد المملوكي ، تساهم في المناسبات الرسميّة (ابن طولون : مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان : ١ / ٥١ و ٢١١) ولهم رئيس يتقدّمهم تجاه السلطة ، يُسمّى "سلطان الحرافيش" (نفسه : ١ / ١١٤ ، والغزّي : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة :١٧ / ٣٢٠) . ولكننا لا ندري على نحو القطع ما هو معنى وضعها الاجتماعي بالتحديد . فمن المعلوم أن العصر تميّز بوجود طبقات مُحدّدة على نحو حاسـم لا يمكن تجـاوزه . في رأسـها ، طبعاً ، الطبقـة العسـكريّة ذات النفوذ الشامل . يأتي بعدها الفقهاء الذين يحتلّون هامشاً ضيقاً . ثم أصحاب الحِـرف والكسبة . إذن ، فيُفهم من ذلك أن الحرافيش هم طبقة رابعة ، ليس لديها دور اقتصادي مَحدّد . فلنقُل أنها تحتلّ رقعة أضيق من الهامش الصغير الباقي . ولكنها تأخذ دائماً جانب السلطة . ممّا يمكن أن يكون ذا دلالة على المستوى السياسي .

وقعنا على أول ذكر للأسرة في المذكرات اليوميّة التي كتبها شهاب الدين أحمد بن طوق ، المنشورة تحت اسم (التعليق) . وذلك في مكان قصيّ بعيد عن المواطن التي ستضطرب فيها بعد قليل . أي بعد أن أصبح أبناؤها أمراء ـ إقطاعيين. وذلك في قرية " الجُبّة " ، في المنطقة الجبليّة شرق " بعلبك " . حيث يأتي الكاتب مرتين على ذكر إقطاعي صغير في القرية ، اسمه "حسين الحرفوشـي الرافضي" (التعليق ، بتحقيقنا : ٢ / ٢١٦ و ٣٢٠) . يُكلّف من قِبَل السلطة المركزيّـة في " دمشـق " بأن يكـون (شيخ) القرية ، و(الشيخ) هي أدنى الرّتب الإقطاعيّة .

ما من شك على الإطلاق في أهميّة هذين النصين . من حيث أنهما يشيران إلى المواطن الأولى لآل الحرفوش . وهما وإن يكونا متعلقيَن بشخص واحد . ذلك أن شخصاً ينجح في الوصول إلى رتبة إقطاعيّة مهما تكن صغيرة ، لا يمكن إلا أن يكون مُستنداً إلى وضع اجتماعي قوي . أي إلى أسـرة كثيرة العدد في موطن نفوذه . ونحن نعرف أن قريـة

"الجُبّة" وما والاها هي من مواطن الشيعة الأولى . هناك نزل المهاجرون الهمدانيّون النازحون من " الكوفة " . ومن هناك انطلقت حركة سكانيّة كبيرة ، محكومة لقاعدة التوازي بين القدرة الإنتاجيّة للأرض وبين الإعمار وعديد السكان . سلكت سفوح سلسلة الجبال الشرقيّة ، المُطلّة على " سهل البقاع " ، لتستقرّ لفترة زمنيّة ما في بلدة "سرعين" . ومنها هبطت إلى السهل وحاضرته مدينة " بعلبك " هذه الحركة السكانيّة هي التي حملت آل الحرفوش من مواطنها الأولى تلك إلى "بعلبك" ، حيث غدوا أمراء . أو فلنقل بالأحرى إقطاعيين بدرجة أمراء (كتابنا : التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية / ١١٣ ــ ١٦) .

نخرج من هذا التأريخ بنتيجة تُبيّن لماذا ارتبنا في صحّة نسب الأسرة المزعوم إلى حرفوش الخزاعي . ذلك أن اسمه شامي الهويّة ، وليس عراقياً كما تزعم الرواية . فضلاً عن أن اتصال آل الحرفوش بـ " بعلبك " حصل في فترة متأخرة . بعد وطنيهما الأولين في " الجُبّة " و " سرعين " . وطبعاً هذه النتيجة لا تنفي أن يكونوا قادمين من " العراق " . بل وأن يكونوا خزاعيين بالتحديد . ارتيابنا مُركّز فقط على أن يكون (حرفوش) المزعوم هو جدّ الأسرة القادم من " العراق " . يبدو لنا أن التأصيل الذي زعمته تلك الأدبيّات الشفويّة ليس موجّهاً إلى الشخص ، فهو مجهول على كل حال . والتأصيل إليه ليس بذاك . وإنما هو مُوجّه إلى الاسم بالذات . وكأنما في محاولة لتحريره من تاريخه الوضيع . بتزييف تاريخ مختلف له .

ولكن أيضاً هل يمكن أن نبني على كل ذلك أنهم من أصول همدانيّة ؟ احتمال مقبول جداً . يؤيّد ذلك ما هو ثابت عندنا ، أن أصل وجود التشيّع في منطقة " بعلبك " ، وخصوصاً المنطقة الجبليّة في شرقيها ، حيث المواطن الأولى لآل الحرفوش ، مَدين للهجرة الهمدانيّة الكبرى إلى " الشام " (التأسيس / ١٨ ــ ٢٠) . تلك الهجرة التي كانت من أهمّ عناصر الحالة الانقلابيّة التي رصدناها في كتابنا (التأسيس) ، وجعلت من "الشام" كله تقريباً شيعيّاً . وهو الذي بُني فكرياً على أيدي معاوية وأخلافه ليكون أرضاً مُسمّمة ضد كل ما ليس له علاقة بالمشروع الأموي . وخصوصاً ضد كل ما يتصل بأهل البيت (عليهم السلام) .

هبط أسلاف الأمراء من آل الحرفوش من مناطقهم الجبليّة القصيّة ، متجهين غرباً نحو المناطق الأكثر خصوبة . هذا الهبوط حصل ضمن حركة سكانيّة كبرى أتت من المناطق الشرقيّة شبه الجرداء واستقرّت أخيراً في مدينة " بعلبك " . فبدّلت هويتها ، وجعلت منها ذات أكثريّة سكانيّة غالبة شيعيّة ، بعد أن كانت حنبليّة . وكما هو مُتوقّع فإن أخبارهم تغيب تماماً أثناء الفترة الممتدّة بين موطنهم الأصلي ، " الجُبّة " وما والاها ، وبين " بعلبك " . حيث غدوا فيها حكّام المنطقة .

هذه الملاحظة هامّة جداً . وذلك حيث تقول أن الحركة السكانيّة ، وما ترتّب عليها من تبدّل في هويّة المنطقة ، قد سبقت إمارة بني الحرفوش . ذلك لأنها تُفسّر إشكاليّة وصول أسرة شيعيّة المذهب في منطقة محكومة مركزيّاً من المماليك ثم العثمانيين . فمن المعلوم أن هاتين الدولتين كانتا تعارضان ، بل وتقمعان عند اللزوم ، أي محاولة من هذا النوع . خصوصاً وأن الأسرة الحرفوشيّة غير مؤصّلة في السلطة ، وليس لها تاريخ في الحكم بقدر ما نعرف .

الحقيقة أن ذلك ، أعني وصول أسرة بني الحرفوش إلى السلطة ، كان حلاً سلطويّاً أنموذجيّاً لإشكاليّة سلطويّة بامتياز . فالتغيّرات السكّانيّة في هذه المنطقة بدأت تصبح ظاهرة بارزة منذ القرن السابع للهجرة / الثاني عشر للميلاد . وقد رصدناها في سلوك

أنموذجي هو الآخَر . وذلك على يد الملك الأيوبي بهرام شاه بن فُرّخ شاه ، الأكثر شُهرةً بالملك الأمجد . حاكم " بعلبك " لمدة خمسين سنة (٥٧٨ ـ ٦٢٧ هـ / ١١٨٢ ـ ١٢٢٩ م) . وذلك حين قرّب إليه أول فقيه شيعي نعرفه نزل المدينة . ذلك هو العالم الجليل أحمد بن علي بن معقل الحمصي (٥٦٧ ـ ٦٤٤ هـ / ١١٧١ ـ ١٢٤٦ م) " فحظي عنده . وقرّر له جامكيّة " (الصفدي : الوافي بالوفيات : ٧ / ٢٣٩) . لقد كان على حاكم "بعلبك" أن يُجاري المتغيّرات الثقافيّة ، التي كانت تحدث بموازاة المتغيّر السكاني . بحيث أن السلطة غدت بحاجة إلى أدوات حكم جديدة . وكانت هذه فرصة ابن معقل للعمل " وانتفع به رافضة تلك الناحية " (الصفدي / نفسه) . (إقرأ سيرة هذا الرائد الجليل في كتابنا : ستة فقهاء أبطال/ ١٩٩٤ م / ١٣ ـ ٤٢) .

من هنا نعرف أن وصول أسرة بني الحرفوش إلى السلطة في " بعلبك " ومنطقتها ، لم يكن إلا التعبير السياسي عن المُتغيّر السكاني الذي تراكم خلال القرون . وانتهى إلى أن تبدّلت الأكثريّة السكانيّة فيها من حنبليّة إلى شيعيّة . ومن المعلوم أن فكرة الإقطاع تقوم على قاعدة تولية شؤون المنطقة المُقطَعَة إلى مَن هو قادر ، بالنسبة لوضعه الاجتماعي و/ أو العسكري ، على ضبطها وجباية ضرائبها . وبالتالي تسديد قيمة الإقطاع إلى خزينة الدولة . أي أن السلطة المركزيّة تنظر بالدرجة الأولى إلى مصلحتها ، فتُقطع منطقة ما لمَن يُثبت فعلاً أنه الأقوى فيها والقادر على جباية ضرائبها .

من هنا أيضاً فإن المحرّك الأساسي لتاريخ أسرة الحرفوش ، طيلة المدّة التي توالى أبناؤ ها على الحكم فيها ، هو الصراع على صفة الأقوى / الأكثر نفعاً للسلطة العثمانيّة ولرجالها . سواء كان صراعاً داخليّاً بين أبناء الأسرة نفسها ، أم صراعاً مع المنافسين من الأقطاعيين الآخرين . صراع أدواته الغلبة في ميدان القتال . فتُسارع السلطة العثمانيّة إلى منح الإقطاع وألقابه إلى المنتصر . أو الرُشى المبذولة لكبار رجال الدولة . فتُسارع أيضاً إلى منح الأسبق أو الأكرم .

ممّا لا ريب فيه أن الدولة العثمانيّة ما كانت لتسمح بدبروز إمارة شيعيّة في منطقة حكمها ، لولا وجود عوامل وأسباب قويّة . جعلت من قيام الإمارة الحرفوشيّة أمراً ممكنا ، وربما لازماً .

في رأس هذه الأسباب العامل السكّاني . وقد أشرنا إليه أعلاه . من الغني عن البيان أن وجود كتلة سكانيّة شيعيّة كبيرة سيكون من أول نتائجه ظهور ديناميّات سياسيّة / قوى مُحرّكة : زعماء سياسيّون ، وجهاء ، قيادات ثقافيّة .... الخ. هكذا فعندما انطلق الأمراء الثلاثة الأول من الأسرة الحرفوشيّة (وسنُعرّف بهم فيما يلي) كانوا التعبير السياسي عن ديناميّات الكتلة السكانيّة الكبيرة التي يُمثّلونها .

ثانيها تبلور النظم الطائفيّة في المناطق التي آل أمرها إلى أن أصبحت دولة "لبنان" اليوم : التركمان السُنّة الذين أنشأوا إمارات في "سهل البقاع" وجبل لبنان" الشمالي . الدروز في " الشوف" . الموارنة في الأعالي الشماليّة لـ "جبل لبنان" . ولكنهم استفادوا من الفراغ السكاني الذي حصل بعد إخراج الشيعة من " كسروان" . فانطلقوا هابطين باتجاه الشمال ، واخترقوا " الشوف " الدرزي ووصلوا إلى "جبل عامل" . في هذا السياق ظهرت الأسرات الإقطاعيّة : بنو سيفا والفريخ التركمان ، بنو معن والشهابيّون ، وبنو الحرفوش .

مع أن الصراع والتنافس هو ما كان يحكم علاقات هذه التكتلات الإقطاعيّة بعضها ببعض . فإن في بعض الأداء السياسي لأمرائها ما يدلّ على أنهم كانوا يُدركون جيداً المصلحة المشتركة التي تربطهم ، في مقابل السطوة البالغة للوالي العثماني في "دمشق".

و سنرى أن أمـراء بنـي الحرفـوش أعلـنوا منـذ البدايـة حربـاً لا هوادة فيهـا علـى جيـرانهم التركمان ، من بني سيفا في "طرابلس" و "عكّار" ، وبني الفريخ في "سهل البقاع" . ربما لأن الشيعة لم ينسوا الفظائع المهولة التي ارتكبها التركمان بحق إخوانهم في "كسروان" ، قبل قرنين ويزيد من الزمان . ولكن سياستهم اعتمدت أيضاً إعادة اللحمة بين "بعلبك" و "جبـل لبنـان" ، إلـى مـا كانـت عليـه قبـل الفـتح الإسـلامي . حيـث كانـت حركـة التبـادل الاقتصـادي بـين "بعلبـك" ، بـل و"سـهل البقـاع" عمومـاً ، وبـين "جبـل لبنـان" والمـوانئ الساحليّة في غاية النشاط . لتتحوّل بعد الفتح الإسلامي إلى "دمشق" و"حمص" وغيرهما. و من هنا تحالفوا مع أمراء بني معن وبني شهاب . وخاضوا إلى جانبهم معارك ضد عدوهم المشترك . في حين كانت سياسة الولاة العثمانيين في " دمشق" تعمل على تخريب العلاقات بينهما ، ابتغاء إضعاف الطرفين . في حين عملوا كل ما في وسعهم لإنهاء الإمارة الحرفوشيّة .

في هذا الإطار من العمل السياسي ، ما كان منه خفيّاً ، وما كان منه ظاهراً ، حصلت مُتغيّرات غدت بعد قليل ثوابت . فالسُنّة (أكثرهم حنابلة وأقلّهم شافعيّة) أخذوا يهجرون "بعلبك" . اتجه الحنابلة إلى حي "الصالحيّة" في "دمشق" . أمّا الشافعيّة فإنهم آثروا الهجرة إلى بلدة "الزبداني" المجاورة . والمسيحيّون الكاثوليك في "بعلبك" و "رأس بعلبك" بدأوا الهجرة إلى قرية "زحلة" بجوار "الكرك" . فوُلدت مدينة "زحلة" كما هي اليوم . في حين ظل الدفق السكاني باتجاه "بعلبك" عاملاً قوياً في تشكيل الهويّة الجديدة للمدينة ، قادماً من القرى الكثيرة المُنتشرة على السفوح الشماليّة لسلسلة الجبال الجنوبيّة . وفي رأسها "طفيل" و "بريتال" .

في هذا السياق السياسي ـ الاجتماعي بنى الأمير يونس بن حسين الحرفوشي أول مسجد للشيعة في "بعلبك" . هو المعروف اليوم باسم "مسجد النهر" ، لقربه من النهر الذي يشقّ المدينة . ما يزال حتى اليوم قائماً معموراً . وهو في الوقت نفسه ثاني مسجد لهم في "سهل البقاع" ، الأول مسجد "الكرك" . تلك البلدة العريقة ، التي ظلّت لعقود أحد المراكز العلميّة الشيعيّة . وأنجبت العشرات من العلماء المعارف ، الذين عاشوا وأنجزوا الباقيات الصالحات في "لبنان" و "إيران" ، حيث هاجر الكثيرون من أبنائها .

في السياق نفسه أقدم الأمير جهجاه الحرفوشي على استقدام السيد حسين مرتضى من " دمشق " وجعله إماماً للمُصلّين ومُفتياً وقاضياً . ومنحه أراضي زراعيّة يتعيّش من محصولها . ومن المعلوم أن مناصب كهذه كانت محجوبة عن الشيعة في العهد العثماني ، إلا في أحوال نادرة جداً . وقد رفضت السلطة العثمانيّة إقرار هذا التعيين . ولم يجرؤ السيد حسين على التوقيع بصفته مفتياً أو قاضياً . ومع ذلك فإنه ظلّ يقوم بوظيفته الدينيّة طيلة حياته (ت : ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م) وبعد وفاته خلفه ابنه السيد محمد .

هكذا يمكن القول أن مدينة " بعلبك " بل و" سهل البقاع " الشرقي كلّه ، قد تشكّل كما نعرفه اليوم على عهد بني الحرفوش ، وجزئيّاً بفضلهم .

سنعرّف الآن بالأمراء الحرفوشيين الثلاثة الأوائل ، بوصفهم مؤسّسي الإمارة الحرفوشيّة في "بعلبك" . ونُثنّي بملاحظات تتعلّق بالفترة التي حكمت فيها الأسرة بعد أولئك المؤسسون الثلاثة . ونختم بالتعريف بالعالم الفقيه الذي أنجبته الأسرة الحرفوشيّة .

١ ـ الأمير علي بن موسى الحرفوشي
(ق : ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م)

أول أمير من الأسرة الحرفوشيّة نعرفه باسمه . ولا شك في أن أباه موسى كان على نيابة "بعلبك" . ولكن يبدو أنه كان بدرجة مُقدّم ، ولم يحصل على الإمارة . وعلى كل حال ، فإننا لا نعرف من سيرته ما يُذكَر.

هو الذي سعى ونجح في انتزاع إمارة "بعلبك" من حكّامها التركمان . الذين كانوا يتغلبون على "سهل البقاع" وأكثر "جبل لبنان " . فحارب بني الفريخ وابن قنبر وابن الأقرع التركمانيين . ونجح في القضاء على أقوى الثلاثة ابن الأقرع . وإليه يعود الفضل في إرساء الإمارة الحرفوشيّة في "بعلبك" على قواعد ثابتة .

الظاهر أن الأمير علي كان حاكماً / أميراً منذ ما قبل السنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧ م . وأن حكمه امتدّ لِما يزيد على النصف قرن . قضى أكثرها مكافحاً في وجه أطماع ولاة "الشام " العثمانيين . ودسائس وفتن أمراء "جبل لبنان" التركمان .

في السنة ٩٩٤ هـ / ١٥٨٥م قبض عليه نائب "الشام" للعثمانيين علي باشا بن علوان . وساقه إلى "استامبول" . ولكن السلطان مراد أطلقه فعاد إلى بلاده .

في السنة التالية جدّد والي "الشام" التالي سنان باشا مطاردته للأمير علي . ولكن هذا نجح في التملّص منه . وبعد عام أصبح سنان نفسه صدراً أعظم . فسعى الأمير إلى استرضاء الوالي الجديد . وهو محمد بن سنان باشا . فدخل "دمشق" سنة ٩٩٨ هـ / ١٥٨٩ م واجتمع به . فأكرم وفادته ، ثم غدر به بعد عشرة أيام وحبسه ، وأنهى الخبر إلى أبيه ، فأمر هذا بقتله . فضُربت عنقه داخل قلعة "دمشق" . وأرسل رأسه للسلطان . أمّا جسده فدُفن بـ "مقبرة الفراديس" في "دمشق" .

الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة : ٣ /١٩٤ ، الحسن البوريني : تراجم الأعيان من أبناء الزمان :٣/ ١١٢ ، المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر : ٤ / ٤٣٢ (هنا يورد عرضاً لرواية مضطربة تقول أن "مراد باشا قبض عليه وخنقه في قلعة دمشق سنة إحدى أو اثنتين بعد الألف " . ومن الواضح أن رواية الغزّي أحرى بالاعتماد . نقول هذا مع علمنا برواية منقولة عن عيسى اسكندر المعلوف . نقلها حسن نصر الله في (تاريخ بعلبك :٢٣٠/١) تؤيد رواية المحبي . فالظاهر أن المعلوف أخذها عن المحبي ، ولم يكن على اطلاع على رواية الغزّي . ثم جاء ميخائيل ألوف في (تاريخ بعلبك) فأخذ برواية المعلوف .

٢ ـ الأمير موسى بن علي الحرفوشي
(٩٩٩ ـ ١٠١٦ هـ / ١٥٩٠ ـ ١٦٠٧ م)

ولي الإمارة بعد أبيه .

في عهده استمرّ النزاع مع أمراء التركمان . وفي هذا السبيل تحالف مع الأمير فخر الدين المعني . وهاجم قرقماس بن فريخ التركماني في بلدة "قبّ الياس" ، وسط "سهل البقاع" . وأنزل به الهزيمة وقتله في معركة جرت قرب بلدة "زينون" . كما حارب وحليفه المعني الأميرَ يوسف باشا سيفا التركماني ، حاكم "طرابلس" . وجرت المعركة في "غزير" ، وكانت لصالح ابن سيفا . ولكن في المعركة التالية (سنة ١٠٠٧ هـ / ١٥٩٨م) دارت الدائرة على ابن سيفا . كما أنه سنة ١٠١١ هـ/ ١٦٠٢م هاجم مقاطعات آل سيفا في "جُبّة بشَرّي" شمال " لبنان " ونهبها دون أن يلقى أدنى مقاومة .

بدأ نجم الأمير يأفل عندما وجد نفسه في وسط نزاع بين أمير "حلب" علي باشا جانبولاد ، ووالي "دمشق" . وحاول أن يتملّص من المأزق المحيط به بالوساطة بين المتنازعَين. ولكن أسيء فهم موقفه . لأنه عجز عن إقناع الطرفين بصيغة تُنهي النزاع بينهما سلميّاً . وفي النهاية اضطر إلى أخذ جانب والي "دمشق" . فما كان من حليفه السابق فخر الدين وجانبولاد إلا أن هاجما قاعدة إمارته ، يساندهم الأمير يونس بن حسين الحرفوش ، ابن عم الأميرموسى . وهذا أول نزاع مُسجّل وصلنا بين أبناء الأسرة . كان فاتحةً لأمثال كثيرة له .

بعد أن ضاعت منه الإمارة لجأ الأمير موسى إلى مزرعة قرب مدينة "الهرمل" شمال غرب "بعلبك" ، اسمها "القيرانيّة" ما تزال تُعرف بالاسم نفسه (" الإيرانيّة " باللهجة الشاميّة التي تُبدل القاف همزة) . وجمع عسكراً كبيراً ابتغاء استعادة إمارته . ولكنه لأمر ما صرف العسكر ، ولجأ إلى "دمشق" مريضاً ، حيث توفي . ودُفن إلى جنب قبر أبيه .

مـن شـعره :

كأن رأس جيوش الضد ليـس لـه ... علم بأن بـلادي موطـن الأسد
ومن مهابة سيفي في القلوب غدت ... أمّ العدو لغير الموت لـم تـلـد
فليرقبوا صدمة مني مُعـوّدة ... أن لا تقرّ لها الأعداء في البلـد
ألستُ نجل علي وهو مَن عرفـوا ... منه المخافة في الأحشـاء والكبد
وأنني أنا موسى منه قد ورثـت ... كفي سيوفاً تُذيب الأمن في البلد

أمل الآمل : ١ / ١٨٦ ، خلاصة الأثر : ٤ / ٤٣٢ ـ ٣٤ ، ألوف : تاريخ بعلبك / ٨٧ ، حسن نصر الله : تـاريخ بعلبـك : ١ / ٢٣٠/ ٣٢ ، المعلـوف : تـاريخ الأمير فخـر الـدين المعنـي / ٦٨ ، أعيـان الشيعة : ١٠ / ٩٣ .

الأمير يونس بن حسين الحرفوشي
(١٠١٧ـ ١٠٣٥هـ / ١٦٠٨ـ ١٦٢٥ م)

أكثر الأمراء من بني الحرفوش حنكة ودهاءً ، وأبعدهم أثراً .

اتبع سياسة عمادها الارتباط بالجبل وأمرائه . في مقابل إضعاف العلاقات مع "دمشق" ، ابتغاء التخفيف من تدخّل الباشوات العثمانيين في شؤون منطقة حكمه . وفي هذا السبيل عقد حلفاً مع الأمير فخر الدين المعني . الأمر الذي أغضب السلطان العثماني ، فأوعز إلى واليه على "دمشق" أحمد باشا الحافظ بأن يقصد الأمير يونس بعسكره ويقتله . ولكن حليفه الأمير المعنى أعانه وانتهت هذه الأزمة بسلام . وسارت الأمور بين الحليفين على هذا النحو . إلى أن انتهت بفرار الأمير فخر الدين إلى " إيطاليا" . إلا أن علاقة الأمير يونس بـ "دمشق" ظلت متوتّرة ، سلسلة من الأزمات المتلاحقة . ما إن تنتهي إحداها برشوة الوالي ، حتى تبدأ أخرى ، وهكذا . كما أن السلطة العثمانيّة عملت على إيقاع الفتنة بين أمراء الأسرة الحرفوشيّة ، بإغراء بعضهم على بعض . ومن ذلك أن والي "دمشق" جركس محمد باشا أعطى الولاية للأمير شلهوب الحرفوشي . وقد نجح الأمير يونس بدهائه في استعادة إمارته . ولكن الأحداث أثبتت أن هذه البادرة من السلطة العثمانيّة فتحت الباب واسعاً للنزاع بين الطامحين الكثيرين من أبناء الأسرة الحرفوشيّة . ولم يُغلق بعد ذلك أبدا .

على الرغم من الظروف السياسيّة الصعبة التي اضطرب فيها الأمير يونس ، فإنه عمل على خطّة نراها ترمي إلى لمّ شمل الشيعة ، ونفخ روح جديدة فيهم . وهم الذين عانوا من التهميش الاجتماعي والسياسي في ظل الحكم العثماني . فبالإضافة إلى بنائه أول مسجد لهم في " بعلبك " ، كما ذكرنا أعلى ، فإنه سعى إلى بناء إمارة شيعيّة مبنيّة على التحالفات . تمتد من مدينة "حمص" ، بما حولها من كثافة سكانيّة شيعيّة ، إلى "بعلبك" فـ "الكرك" فـ "مشغرة" وصولاً إلى "جبل عامل" ، بما يُمثّله من ثقل فكري وسياسي . ولكن هذا المشروع الطموح اعترضته دسائس الدولة العثمانيّة ، التي وصلت إلى ذروتها

حين أغرت الأمير فخر الدين المعني بالانقلاب على حليفه السابق ، فاجتاح بعسكره "بعلبك" سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م وأمعن المعلّمون والقلاّعون فيها تخريباً . ولم يتركوها إلا قاعاً صفصفاً . هذا فضلاً عن أعمال التخريب الشامل التي نالت القرى المجاورة للمدينة .

في السنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م تمّ قتل الأمير يونس خنقاً في "دمشق" على يد والي "الشام" العثماني ، بدسيسة من الأمير فخر الدين المعني . والمصادر لا تقول كيف تمّت هذه "الدسيسة" . والظاهر، على سبيل التخمين ، أن المعني أغراه بالذهاب إلى "دمشق" بوسيلة ما حيث قُبض عليه وأُورد مورد الهلاك .

الصفدي : تاريخ الأمير فخر الدين المعني : في مواطن كثيرة، أنظر فهرست الكتاب ، ألوف : تاريخ بعلبك / ٦٦ـ٧٢، نصرالله : تاريخ بعلبك : ٢/٢٣٧ـ٦٤ ، الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان : في مواطن كثيرة جداً ، انظر فهرست الكتاب ، أعيان الشيعة : ١٠ / ٣٢٥ .

كان عهد الأمير يونس القمّة التي وصلت إليها الإمارة الحرفوشيّة . ثم غرقت من بعد في الفوضى . فوضى قوامها نزاعات ومُشاحنات وتقاتل لا نهاية لها بين أبناء البيت الحرفوشي ، حتى بين الأخوة أحياناً . فكأن هذه الإمارة كانت في نزع طويل مؤلم . وفي هذا السياق اجتاحها والي "عكّا" للعثمانيين أحمد الجزّار سنة ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م عازماً على القضاء قضاءً مُبرماً على البيت الحرفوشي . فقبض على كل من طالته يده منهم ، وساقهم إلى "دمشق" حيث جرى إعدام عدد منهم سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م . ولم ينجُ من المذبحة إلا الأمير جهجاه بن مصطفى الحرفوشي . (١٢٠١ـ ١٢٣٣هـ/ ١٧٨٦ـ١٨١٧م) . الذي يُقال أنه استنجد بأقاربه بني خزاعة في "العراق" ، فمنحوه مالاً وفيراً ، استعان به على استعادة مُلك بيته . ولكن عهده وما تلاه كان تكراراً قاسياً لِما سبق . ذلك أن النزاعات الداخليّة عادت إلى ما كانت عليه وأكثر .

في السنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م أصدر السلطان العثماني قراراً ألغى حكم بني الحرفوش . فأعلن الأمير محمد بن جواد الحرفوشي ، آخر الأمراء ، العصيان . وجاب البلاد يجمع العساكر استعداداً للمقاومة . وأخذ يُدير شؤون منطقة على نحو الاستقلال . فأرسلت الدولة حملة بقيادة والي "الشام" . عجز الأمير محمد عن الثبات لها . ففرّ إلى قرية "معلولا" شرق "دمشق" ومعه أخوته وبعض أقاربه . وفيها دارت معركة قُتل فيها بعضهم ، واستسلم الأمير محمد وشقيقه عسّاف . وعادت العساكر إلى " بعلبك" حيث قبضوا على مَن بقي فيها من الأمراء . ونفوا الجميع إلى جزيرة "كريت" . وكان ذلك آخر العهد بهم . وعلى الأثر ألغيت إمارة "بعلبك" وتحوّلت إلى لواء يُدير شؤونها قائمقام .

محمد بن علي بن أحمد الحرفوشي
(ت : ١٠٥١ هـ / ١٦٤١ م)

الفقيه اللغوي الشاعر المُنشئ المصنّف . وصفه الحر العاملي في (أمل الآمل : ١/ ١٦٢) فقال : " كان عالماً فاضلاً أديباً ماهراً مُحققاً مُدققاً شاعراً مُنشئاً حافظاً . أعرف أهل عصره بعلوم العربيّة " .

يؤخذ من نسبته أنه وُلد ونشأ في " الكرك " . فأكثر المصادر تقول في نسبته "الكركي" . و"الكرك" بلدة غرب "بعلبك" ، وهي من المراكز العلميّة التاريخيّة للشيعة في "لبنان" . وكانت لا تزال في أيام المترجم له على شئ من النشاط العلمي . فلعلّ هذا يُفسّر خروجه على صِبغة رجال أسرته ، واتجاهه اتجاهاً فكرياً صِرفاً .

مع أنه ، وفقاً لنص المحبّي في (خلاصة الأثر : ٤/ ٤٩) ، ينتمي إلى أسرة الحرفوش أمراء " بعلبك" ، فإنه عمل في بدو أمره في "دمشق" في وشي الحرير ،

المُسمّى عند أهلها (الغباني) . ومن هنا لُقّب في بعض المصادر بـ " الحريري " . وكان كثير من الطلبة يقصدونه وهو في حانوته يشتغل ، فيقرأون عليه .

خرج من "دمشق" هارباً ، بعد أن نُمي إليه أن أحد فقهائها يسعى لدى الحكّام على قتله على الرفض . ففرّ إلى "حلب" ، ومنها إلى "إيران" . وفيها برُز واشتهر . وكان الشاه عباس الكبير شديد التعظيم له .

سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م ، أي قبل وفاته بسنة ، حجّ . وفي "مكة" لقي المُحدّث والفقيه الجليل السيد علي بن علي بن أبي الحسن الجُبعي (ت:١٠٦٨ هـ/ ١٦٥٧ م) فقرأ عليه " جملةً من كتب العامّة والخاصة" على حدّ ما قاله الخوانساري في (روضات الجنات: ٨٥/٧) . فهذا يدلّ على أنه كان طُلعة ، لا يملّ من طلب العلم . ممّا يساعد أيضاً على حلّ إشكاليّة خروجه على نهج قومه .

من طريف ما نعرف عنه أنه كان مُدخّناً . فهو من أوائل من اكتسب هذه العادة في تلك الفترة المُبكّرة من تاريخ دخولها المنطقة وانتشارها . ومن شعره :

يقولون في الغليون أفرطت رغبةً ... وليس بشئ تقتنيه وتختار
فقلتُ لهم ماذاك إلا لكونه ... مُضاهيّ لاتنفك في قلبه النار

ترك أحد عشر مصنفاً و " رسائل متعدّدة" . أكثرها شروح على كتب نحويّة .
توفي في "إصفهان" .

أمل الآمل :١٦٢/١ــ ٦٤، رياض العلماء :٥/ ١٢٨ ــ ٣١، سلافة العصر / ٣١٥ ــ٢٣ ، روضات الجنات : ٧ / ٨٥ ـ ٨٨ ، تكملة أمل الآمل / ٣٥٠ ـ٥٢ ، الكنى والألقاب :٢ / ١٥٩ ـ ٦٠ ، الأعلام للزركلي : ٦ / ٢٩٣ ، مشاهير شعراء الشيعة :٤/ ٢٦٩ ـ ٧١، معجم المؤلفين : ١٠ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥، أعيان الشيعة :١٠/ ٢٢ ـ٢٣، الغدير:٢٨٥/١١ ـ٩٠ ، هديّة الأحباب /١٤٤، ريحانة الأدب: ٢ / ٣٦ ـ ٣٧، خلاصة الأثر: ٤ / ٤٩ ـ ٥٤ ، فوائد الرضوية / ٥٥٦ ٥٧ ، لغت نامه دهخدا : ١٩ / ٤٥٥ ، كشف الحجب / ٢١٨ و٣١٩و٣٣٠و٣٣٧و٣٤٠و٣٤٥و٣٧٨و٤٧٧و٤٩٨، هدية العارفين : ٢٨٤/٢ ، الذريعة : في مواطن كثيرة ، انظر فهرست أعلامها / ٢٠٥٧.

مصادر البحث : الغزّي : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ،ط. بيروت ١٩٩٠م ، الحسن البوريني : تراجم الأعيان من أبناء الزمان ، نشرة المجمع العلمي العربي بدمشق ، دمشق في سنوات متعددة ، المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ،ط. دار صادر بيروت ، لات. ، حسن نصر الله : تاريخ بعلبك ، ط. بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ميخائيل ألوف : تاريخ بعلبك ، ط. بيروت ١٩٠٤ م ، ابن طولون الصالحي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، بتحقيق محمد مصطفى ١٣٨٤هـ ، شهاب الدين أحمد بن طوق : التعليق بتحقيقنا ، ط. دمشق المعهد الفرنسي للدراسات العربية في عدّة سنوات ، جعفر المهاجر : ستة فقهاء أبطال ط. بيروت مركز الدراسات والتوثيق والنشر في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ١٤١٥هـ/١٩٩٤ م ، جعفر المهاجر : التأسيس لتاريخ الشيعة في لبان وسورية ،ط. بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م خليل بن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات ، نشر المعهد الألماني في بيروت في سنوات متعددة ، محمد بن الحسن الحر : أمل الآمل في علماء جبل عامل ، بتحقيق أحمد الحسيني ،ط. بغداد ١٣٨٥ هـ ، أحمد بن محمد الخالدي :تاريخ الأمير فخر الدين المعني ، منشورات الجامعة اللبنانيّة ، بيروت ١٩٦٩ م ، طنوس الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ، منشورات الجامعة اللبنانيّة ١٩٧٠ م ، عبد المجيد عبد الملك : تاريخ الإقطاع في لبنان ،ط. بيروت المركز العربي للأبحاث والتوثيق سنة٢٠٠٠ ، وستنفلد : فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه ، نشر الجمعيّة الملكيّة للعلوم ١٨٨٦ م، عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الأمير فخر الدين المعني ، ط. زحلة ١٩٢٨ م ، عبد الله أفندي

الجيراني : رياض العلماء وحياض الفضلاء ، ط. قم ١٤٠١ هـ ، محمد باقر الخوانساري : روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، ط. طهران ١٣٩٠ هـ ، علي خان المدني : سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، ط. المكتبة المرتضويّة، لات ، عبد الحسين الشبستري : مشاهير شعراء الشيعة ، ط. المكتبة الأدبيّة المختصة ، لات ، خير الدين الزركلي : الأعلام ، الطبعة الثالثة ، لات، حسن هادي الصدر : تكملة أمل الآمل ، بتحقيق السيد أحمد الحسيني ، نشر مكتبة آية الله المرعشي١٤٠٦ هـ ، عباس القمي : الكنى والألقاب ، ط. طهران ١٣٨٦هـ ، له أيضا : فوائد الرضويّة في تراجم علماء المذهب الجعفريّة ، كتابفروشي مركزي ، لات ، له أيضاً : هدية الأحباب (الترجمة العربية) ، مؤسسة النشر الإسلامي ، لات ، عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، نشر مكتبة المثنى بغداد ، لات ، محسن الأمين : أعيان الشيعة ، ط. بيروت دار الوفاء ، لات ، محمد علي مدرس : ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية والنسب ، انتشارت خيام ١٣٦٩ هـ.ش. ، عبد الحسن الأميني : الغدير في الكتاب والسنة والأدب ، ط. طهران ١٣٧٢ هـ ، محمد محسن الطهراني : الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، ط. بيروت ، دار الأضواء ، لات ، إعجاز حسين الكنتوري : كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار ، ط. كلكته ١٣٣٠ هـ ، إسماعيل باشا البغدادي : هديّة العارفين ، ط. طهران ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .